وأمم يقوم موقعها في الشرق ، بينما حياتها وتاريخها وعاداتها تتميز بواقع عنيد (فظ) هو بوضوح جلي اكبر من أي شيء يمكن قوله عنها في الغرب . إن هذه الدراسة عن الاستشراق ليس لديها سوى القليل جدا لكي تسهم به فيما يختص بتلك الواقعة ، باستثناء الاقرار بها ضمنياً . لكن ظاهرة الاستشراق كما أدرسها في هذا الكتاب لا تتناول بشكل رئيسي موضوع المطابقة بين الاستشراق والشرق ، بل تركز على التماسك الداخلي للاستشراق وأفكاره عن الشرق (المشرق بوصفه مهنة حياة عملية) بالرغم من أية مطابقة أو فيما يتعداها ، أو في انعدام تطابق ذلك مع شرق « حقيقي » في الواقع . والنقطة التي أنوي تسجيلها هنا هي ان عبارة دزرائيلي عن الشرق تسير بصورة رئيسية إلى ذلك التماسك المخلوق ، وتلك الكوكبة المنظمة من الأفكار بوصفها الشيء البارز عن الشرق ، وليس إلى مجرد كينونتها ــ كما تقول عبارة دالاس ستيفنز .

ثمة استدراك ثان ومفاده ان الأفكار والحضارات والتواريخ لا يمكن فهمها أو درسها جدياً بدون قوتها ، أو على نحو أكثر دقة بدون دراسة أشكالها السلطوية . ونحن نكون ماكرين مخادعين حين نعتقد بأن الشرق جرى خلقه ــ أو ، كما أسمي ذلك : جرت « مشرقته » ــ وان مثل هذه الأمور تحدث ببساطة كضرورة للخيال . فالعلاقة بين الغرب والشرق هي علاقة سلطة وسيطرة ، ودرجات متنوعة من الهيمنة المعقدة ، وتتم الاشارة إليها بدقة تامة في عنوان الكتاب الكلاسيكي الذي أصدره ك . م . بانيكار : « آسيا والسيطرة الغربية »[٢] فالشرق تمت مشرقته ليس فقط بسبب اكتشاف كونه « شرقياً » في كافة تلك الاساليب التي كان الانسان الأوروبي العادي في القرن التاسع عشر يعتبرها مبتذلة ، بل ايضا بسبب **إمكان جعله** شرقيا ــ أي : إخضاعه لأن يكون شرقياً . وهناك قدر ضئيل جدا من الموافقة مثلا ، يمكن العثور عليه في حقيقة كون لقاء فلوبير مع محظية مصرية قد انتج انموذجاً عن المرأة الشرقية واسع النفوذ والتأثير . فالمحظية لم تتحدث عن نفسها أبدا ولم تعبر عن مشاعرها أو حضورها أو تاريخها . لقد تحدث فلوبير بالاصالة عنها وعبر عن نوازعها . كان أجنبياً ، واسع الثراء ، ومن الذكور ، وهذه الأمور كانت حقائق تاريخية عن السيطرة أفسحت أمامه المجال ليس لكي يمتلك « كوتشوك هانم » جسدياً فحسب ، بل لكي يتحدث بالأصالة عنها ويخبر قراءه كيف كانت « انموذجاً للمرأة الشرقية » . وحجتي مؤداها ان موقع القوة الذي امتلكه فلوبير بالنسبة الى كوتشوك هانم لم يكن ظاهره معزولة . بل انه موقع يمثل تمثيلا صادقا على نمط القوة النسبية بين الشرق والغرب ، وعلى المقالة عن الشرق التي امكن قيامها بواسطته .

ينقلنا هذا إلى استدراك ثالث . يجب ألا نفترض ابدا بان بنية الاستشراق لا تعدو كونها بنية من الاكاذيب او الاساطير التي تتحول الى هباء بكل بساطة فيما لو جرى قول الحقيقة بشأنها .

وأنا نفسي أعتقد بأن الاستشراق هو أكثر قيمة ، بصورة خاصة ، كعلاقة للسلطة الأوروبية ــ الاطلسية على الشرق منه كمقالة صادقة عن الشرق (وهو ما يزعم الاستشراق كونه في شكله الاكاديمي أو العلمي) . ومع ذلك فان ما ينبغي علينا احترامه ومحاولة استيعابه هو القوة المحبوكة سوية وتماما للمقالة الاستشراقية ، وصلاتها الوثيقة جدا مع المؤسسات السياسية والاقتصادية ــ الاجتماعية الممكنة لها ، ومتانتها المروعة . وبعد كل شيء ، فان أي منظومة للأفكار التي باستطاعتها البقاء على حالها بوصفها حكمة قابلة للتدريس (في